بحث عـام | قسم الدراسات الدينية | 30 أبريل 2016

عقيدة الانتظار بين الواقع والتمنّي: نزول عيسى أنموذجًا

يوسف هريمة
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

إشكالية البحث:

لم تخرج عقيدة نزول المسيح على فكرة الانتظار التّوراتية، أو الإنسانية بشكل عام، على اعتبار فكرة الانتظار هي هاجس الشّعوب المقهورة والمستضعفة. ولم يلجأ إليها الإنسان إلاّ تعبيرًا عن هذا الحلم بعالم مثالي، يقوده المخلِّص أو المنقذ أو المهدي أو المسيح. ذلك العالم المملوء بالخير والعدل والحقّ، والذي ستتغيّر فيه معالم هذا الكون، حيث ينمحي من هذا الوجود أيّ دين غير الإسلام، في تعبيرات توضّح هاجس العقل المتدين، الذي لا يطيق أصالة الاختلاف. ويسعى عبر مخياله الجمعي إلى الظّفر بعالم تنتهي فيه كلّ الخصوصيات، ولا يبقى هناك أثر إلا لنمطية المذهب أو العقيدة أو الدين.

إنّ كلّ شعْب أو جماعة، ينتظرون مخلّصهم أو مهديهم، أو منقذهم، بمواصفات تكاد تتشابه في الصّورة، وتختلف في الشّكل. حيث يتأطر هذا العقل الجمعي بما تنسجه خيوط الأسطورة، أو تؤسّس له نصوص مختلفة، وكتابات متباينة، وتأريخات رسمية وغير رسمية. لقد شكّلت هذه الكتب والوثائق التاريخية إحدى المحددات الأساسية، والموجّهات المركزية للعقل المتدين، وساهمت في تشكيل هذه الذهنية الانتظارية في بعدها اليهودي والمسيحي، أو في طابعها الإسلامي، حيث ستأخذ أبعادًا أخرى، وتتحول إلى أدلوجة تعتمدها طوائف ومذاهب تحمل الدين نفسه، وتتباين وجهات نظرها في سياقات تشكّل هذا الوعي.

وللخوض في هذا الموضوع اخترنا تتبع عقيدة الانتظار، باعتبارها واحدةً من العقائد التي برز فيها مفهوم التثاقف بشكل جلي، حيث اعتمدنا على المقارنة بين نظرة اليهودية، والمسيحية، ثم الإسلام. وقبلهما الديانة الزرادشتية، بوصفها مصدرًا لهذه العقيدة. كما حاولنا ولو بشكل موجز قراءة هذه العقيدة في أبعادها السيكولوجية، حيث لم تخرج عن هذا البعد الإنساني التواق إلى الخلاص، حينما تعوزه الحيلة، أو تتكالب عليه المحن. فكلما تعرض الإنسان، أو المجتمعات إلى نكسات أو إحباطات، اشتغل هذا العقل ليؤسس له مخلصه، ومنقذه. وكأنّ قدر هذا الإنسان الوجودي، يحتم عليه البحث عن آفاق من الآمال، كلما حاصرته الآلام.

وستكون مقاربتنا للموضوع على الشكل التالي:

التثاقف وجدلية الدين والإنسان

الماشيحانية: انتظار للمخلص

- المسيح في الديانة اليهودية

- المسيح في الديانة المسيحية

- المسيح في الديانة الإسلامية

1- التّثاقف وجدلية الدين والإنسان

يعدّ الدين أحد المحرّكات الأساسية لحركة التّاريخ، ومجالاً لتشكيل الوعي الجمعي. منه تنبثق ذهنية الجماعة، وفيه تترسّخ سيكولوجيتها، على اعتبار **نفسية الجماعة من نفس طبيعة نفسية الفرد، لكن لها طبقة نفسية مختلفة، وهي المجتمع وكلّ العقول التي تحويها**[1]. ولعلّ كلّ ما يفرزه الدّين من أصول، وقواعد، وعقائد، وشرائع يندرج ضمن هذا الإطار الذي يختزله الإنسان في أبعاده النفسية والاجتماعية. فعلى الرغم من إطلاقية الدين، وقداسة مصدره عند مختلف الفئات المتدينة، إلا أنّ تفاعل الإنسان مع الظّاهرة الدّينية، ومحاولة تنزيلها، واستيعابها يجعل منها أفقاً إنسانيًا، يلبس كلّ معاني التّاريخانية، ويضع الإنسان أمام مسؤولياته الاجتماعية، دون مركّبات نقص، أو محاولة التّعالي على الواقع، والتّماهي مع المطلق والمقدّس.

هذا مكمن الدّاء في الفكر الديني الذي يريد أنْ يصنع من نفسه خطّاً موازيًا للدين. ويكسر الحواجز بين المطلق والنّسبي. إذ المنتوج الثقافي بوصفه تعبيرًا وتجلّياً من تجلّيات التّفاعل الإنساني مع الظّاهرة الدينية، لا يمكن أنْ يصير مطلقاً، إلا إذا تحوّل هذا الدين من الله إلى المعبد، ومن الاجتماع إلى السّياسة، أيْ أنْ تصير الفكرة الدينية أدلوجة هدفها الدّمج والضّبط والتّخدير. أمّا أفق الدّين فهو المطلق الذي لا يمكن أن يتلبّس به الإنسان، إلا وهو محكوم بسياقات بشريته، وباحتمالية الخطأ والصواب إذ «**لا تطابق ممكن في الأصل بين القارئ والمقروء، إذ النّص يحتمل بذاته أكثر من قراءة. وأنّه لا قراءة منزّهة مجرّدة. إذ كلّ قراءة في نصٍّ ما، هي حَرْفٌ لألفاظه وإزاحة لمعانيه.**»[2]. وهذه هي إشكالية الخطاب الديني، حيث يضمر أكثر مما يظهر، ويواري أكثر مما يبدي **ومثال ذلك القول بأنّ الله هو الحَكَم. فإنّ مثل هذا القول يحجب أوّلاً طبيعة السّلطة أيْ ناسوتيتها، ويحجب ثانياً رغبة القائل به ممارسة سلطته على من يتوجّه إليهم بالخطاب. ويحجب ثالثاً ذاته وحجبه، أيْ كون النصّ نفسه يمارس سلطته على السّامع أو على القارئ**[3].

عرف التّاريخ الدّيني في مساراته المختلفة، هذا الصعود والهبوط في مؤشرات التسلّط والانحدار، أو مؤشّرات التقدّم والحضارة. كما تميّز بالتّداخل بين عناصر الفكرة الدينية، وحركة التأثير والتأثر أو جانب التثاقف. وحينما نتحدّث عن الامتداد الثّقافي بوصفه حركة تواصلية، ترسم معالم التّأثير والتأثُّر بين الأديان، فإنّنا نقصد بأنّ البنية الفكرية الدّينية مهْمَا اختلفت في التفاصيل، فهي بِنية متشابهة ولو تباينَت هذه الجزئيات، أو تعدّدت الظّروف والمآلات والملابسات. فما يعزِّز هذا الطّرح هو هذا التّشابه في الأصول، والأحكام،

---

1 جنيفر، ليمان. (العدد 2085). **تفكيك دوركايم: نقد ما بعد بنيوي**. ترجمة محمود أحمد عبد الله. مراجعة محمود الكردي. تقديم محمد حافظ دياب. (ط1/ 2013). المركز القومي للترجمة. ص 67

2 حرب، علي.(1993). **النص والحقيقة II . نقد الحقيقة** (ط1). بيروت. المركز الثقافي العربي. ص 6

3 حرب، علي.(2005). **نقد النص**. (ط4). المركز الثقافي العربي. بيروت. ص 16

والعقائد والرؤى، والتصورات للموضوع الواحد، وما الاختلاف إلا تعبير واضح عن التّمايزات التي قد تحدُث بفعل التداخل الزّماني والمكاني والثّقافي.

إنّ النّاظر في هذه البنى الدينية يجدها مرتكزة على النّص بوصفه إطاراً ومعياراً متعاليًا في الزّمان والمكان. وقد تتجاوز في بعض الأحيان هذا النّص الأصلي لتصير كلّ الهوامش والشّروح، وما يُكتب بتأثير من النّص، إلى نصوص إضافية تستمدّ قدسيتها من النّص الأصلي، وربما تفُوقه كما يتأكّد لنا من خلال مدارساتنا لبعض الجوانب الثقافية في بنيتنا الدينية. فالرّوايات صارت قاضيةً على القرآن، والتّفاسير والشّروح صارت الوسيلة الوحيدة، والقناة الأساسية للمقصود الإلهي. ناهيك عن ما أنتجته الآلة الفقهية، بفعل التطوّر الذي عرفه المجتمع، وبتأثير من الحوادث والمستجدّات التي تفرضها سلطة التغيير.

بالعودة إلى مفهوم التثاقف يتضح بأنّ منشأ هذا المصطلح هو الدّراسات النّفسية، ليشمل بعد ذلك مجالات أخرى كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، والأدب، كما أكدّ على ذلك العديد من الباحثين. ويعتبر حقل الأنثروبولوجيا من الحقول التي استعملت هذا المصطلح بشكل كبير، لما له من ارتباط وثيق بذهنية الإنسان، ونمط عيشه وتفكيره، وأسلوب ثقافته. وقد استعمله الباحثون الغربيون لأول مرة في الحقل السابق ك J. W. Powels و G.Stanley Hall.

كغيره من المفاهيم أخذ هذا اللّفظ حمولات أكسبتها له الدلالات التي أضافها له الباحثون، من زوايا عكست رؤى وظّفها كلّ بحسب اختصاصه ومجال اهتمامه. لهذا نجد بأنّ باحثًا مثل Frediric Bartlett، نظر إلى المثاقفة بوصفها شكلاً من أشكال الحركات الاستعمارية، كما أشارت إلى ذلك أحلام صبيحات، فالمثاقفة ليست هنا إلا الهيمنة التي تفرزها ثقافة المستعمِر، في مقابل الرّضوخ والخنوع الذي تتلبّس به ثقافة الشعوب المستعمَرة. هذه السّيطرة يمكن أنْ تتجلّى لنا من خلال ما أحدثته الحملات الإمبريالية لدى كلّ الشعوب، حين تذوب الفوارق بين الخصوصية والكونية. وما يعيشه العالم اليوم من غزو ثقافي جسّدته العولمة بوصفها إحدى تجلّيات التثاقف، هو خير دليل على أنّ حركة التّثاقف هي حركة جدلية، تهدف إلى إضعاف كلّ ما هو محلّي، لصالح الكوني أو العالمي بمفهوم الثّقافة القوية. ولعلّ عالم الرأسمالية، أو صناعة مجتمع الاستهلاك بتعبير بودريار يزيح السّتار عن كل الأقنعة، التي يمكن أن تخفي خطر هذا المصطلح وعدم حياديته.

فالتأكيد على البعد السلبي لكلمة التثاقف كما أشار إليه الباحثون في هذا المقام، ينطلق من خطورة عدم مراعاة السّياقات الاجتماعية والثّقافية والفكرية للنّاس، حين تصير وظيفة الثقافة القوية الأساس هي محو الحقائق. فالكثير من الأسماء على حدّ تعبير عبد الرزاق الجبران تعمي الحقيقة. لهذا فالتعبير بدلالات مختلفة عن التثاقف في مجال التداول العربي من قبيل «النّقل الثّقافي» «التبادل الثقافي» «الانفتاح الثقافي» «التحوّل الثّقافي» «التنوّع الثقافي»، لا يبرر البعد الإيديولوجي الذي ترزح تحته هذه المفاهيم. إذا ما اعتمدنا تعريف

مانهايم للإيديولوجيا حيث قسّم معناها إلى جزأيْن: معنى جزئي: والمقصود به دلالة الكلمة على أنّنا نتخذ موقفًا متشكّكًا اتجاه التصورات التي يتقدم بها خصمنا، إذ نعتبرها تمويهات واعية تخفي الطبيعة الحقيقية لوضع لن يكون الاعتراف بحقيقته متفقًا مع مصالح هذا الخصم. أما المعنى الكلّي فهو أنْ نوضّح سمات وتركيب البناء الكلّي لعقلية ذلك العصر أو هذه الجماعة[4]. فلم تعد الإيديولوجيا ذلك العلم الذي يهتمّ بالأفكار كما أسّس لها دو تراسي، حين اعتبرها علماً شارحاً أو ما بعد علم meta science أيْ علم العلم، وقد ذهبَتْ إلى أنّها قادرة على تفسير من أين جاءت العلوم الأخرى، وعلى تقديم تسلسل أنساب علميّ للفكر[5].

وهناك من يطلق على مفهوم «التثاقف» مفهومًا آخر وهو صراع الحضارات الذي بشر به صموئيل هنتنجتون تجسيدًا لنظرية البقاء للأصلح، واعتمادًا على منطق الصّراع الذي يحكم الطّبيعة، والثّقافة جزء لا يتجزأ من بنية هذا الإنسان، ولو أنّ فكرة الصراع حرّكتها دوافع فلسفة النهايات، والتّبشير بالأنموذج الرأسمالي بوصفه نهاية النهايات، ومنتهى التاريخ على حدّ تعبير فوكوياما. فالتثاقف هنا ليس سوى التفكير من داخل بوتقة القوي، وصانع القرار العالمي كما هو مشاهد في عالمنا المعاصر. وحتى الذين رفعوا حوار الثقافات، أو حوار الأديان من أوساط المثقفين، والسّياسيين، ورجال الدين في عالمنا العربي والإسلامي، لم يعوا بأنّ الحوار يقتضي أطرافًا متساوية. وكلّما كان المحاور ضعيفًا، فلن يكون حواره إلا لوْكاً لمفاهيم لم يع بعد امتداداتها. لهذا لم تنجح كلّ المؤتمرات الدّاعية إلى مثل هذه الحوارات، لعدم التكافؤ بين المتحاورين، وانخراط الثقافة الضعيفة بشكل قهري في دواليب الثقافة القوية.

وفي حقلي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا كان التثاقف دالاً على حركة التأثير والتأثر بين الثقافات، ودراسة العوامل المؤثرة في انتقال ملامح حضارة أو ثقافة أو فكر إلى ثقافات أخرى، وكيفية اندماجها بشكل كلي أو جزئي فيها. وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بفكرة التعارف في قوله تعالى: «**يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**». فالتعارف هو لحظة حتمية يقتضيها الاختلاف وطبيعة البشر والكون. ولحظة التّثاقف هنا هي أنْ يبحث الإنسان عن مظاهر كماله ونقصانه في علاقته بالآخر المختلف. فالاختلاف هنا هو بحث عن نقاط التلاقي، لا نقاط التصادم كما تبشّرنا به نظرية التّثاقف.

من هذا المنطلق عرفت الأديان امتدادات ثقافية على مستوى بنياتها الأساسية، وساهمت حركة التثاقف بدورٍ إيجابيٍّ في رسم هذا الخطّ الإنساني. من خلال التصوّرات والعقائد والمرتكزات الفكرية. واخترت لمعالجة هذا الموضوع جانبًا من جوانب هذه الصورة الثقافية، صورة المخلِّص، وفكرة الانتظار في بعدها النّفسي والاجتماعي، وكيف أنّ كلّ شعب أو جماعة، ينتظرون مخلّصهم أو مهديهم، أو منقذهم، بمواصفات تكاد تتشابه في الصورة، وتختلف في الشكل. حيث يتأطر هذا العقل الجمعي بما تنسجه خيوط الأسطورة، أو

4 المرجع السابق. الصفحة نفسها.

5 هوكس، ديفيد.(2000). الإيديولوجية. ترجمة إبراهيم فتحي. المجلس الأعلى للثقافة. ص 45

تؤسّس له نصوص مختلفة، وكتابات متباينة، وتأريخات رسمية وغير رسمية. لقد شكّلت هذه الكتب والوثائق التاريخية إحدى المحدّدات الأساسية، والموجّهات المركزية للعقل المتديّن، وساهمت كما سبق وأنْ أكّدنا في تشكيل هذه الذّهنية الانتظارية في بُعدها اليهودي والمسيحي، أو في طابعها الإسلامي، حيث ستأخذ أبعادًا أخرى، وتتحوّل إلى أدلوجة تعتمدها طوائف ومذاهب تحمل الدّين نفسه، وتتباين وجهات نظرها في سياقات تشكُّل هذا الوعي.

2- الماشيحانية: انتظار للمخلّص

ارتبطت فكرة المسيح المخلّص ارتباطًا وثيقاً بالفكر الدّيني عمومًا، واليهودي منه على وجه الخصوص. وهي فكرة ضاربة في أعماق التاريخ، عبّرت في فترات تاريخية مختلفة عن عجز الكائن الإنساني، عن الإحاطة بفكرة الإله المتعالي عن مدركات الإنسان المادية، والمتجاوز لحدود الطّبيعة والتّاريخ. كما عبّرت بشكل من الأشكال عن مرحلة جنينية في التّفكير الإنساني، لم تستوعب بعد فكرة الاختيار والحرية الإنسانية، في ممارسة حركة التّاريخ وفق سنن الله وقوانينه. هذا الوضع الجنيني في الفكر الإنساني، دفع بالإنسان ليفسّر حركة التّاريخ وفق سقفه المعرفي الضيّق، ليجعل الإله حالاً في الطبيعة متحكِّمًا في قوانينها، هذا الإله الذي ينهي كلّ المشاكل، تارة بتدخله المباشر والفوري، وتارة أخرى بإرسال المخلّص في الفكر الغنوصي[6] الوثني.

وإذا ما حاولنا تتبّع عقيدة الانتظار في أشكالها المختلفة، وعند من اعتنقوها سواء من الأوائل أو المتأخّرين، نجد أنّ هناك بعداً واحدًا يتحكّم في مفاصل هذه العقيدة، وهو عقدة الإحساس بالنّقص. فكلّ الأقوام والمذاهب والطّوائف التي آمنت بها، ميّزتْها ظروفها الاجتماعية القاهرة، وحركات الاضطهاد التي تعرّضت لها. فالعامل النّفسي هنا محرّك أساسيّ في قراءة هذا الواقع الذي يتوق إلى التّغيير من خلال الإيهام الكاذب أو خداع الذّات كما يسميها ألفرد آدلر، حيث يلجأ الإنسان إلى خداع ذاته بدل مواجهة العقبات التي تعترض طريقه[7].

هذا ما يفسّر لنا ظهور مجموعة من المخلّصين في ثقافات متباينة وبأسماء مختلفة، قاسمها المشترك، إعادة العدل والحقّ والخير إلى الأرض، وتمكين هذه الشّعوب من الأرض، وإقامة موازين الحقّ والمساواة، وطرد الظّالمين ودحرهم. فظهرت مثلاً عن المصريين القدامى فكرة النّيل وما مثله في الوعي الجمعي

6 االغُنُوصيَّة من "غنوص" *gnōsis*، الكلمة اليونانية التي تعني معرفة أو بصيرة، وهي تسمية أُطلِقَتْ على حركة دينية وفلسفية سائبةِ التنظيم ازدهرتْ في القرنين الأول والثاني للميلاد. تقول بأنّ المادة شر وأنّ هناك صراعًا بين النور والظلمة. وللمزيد من المعلومات حول هذا الفكر الفلسفي راجع ما كتبه إدوارد مور حولها في كتاب: «الغنوصية: الفكر والوحي»، ترجمة أسماء جلال الدين، إعداد دارين أحمد على الموقع: http://www.maaber.org/issue_february05/spiritual_traditions1a.htm. وكذلك: «Histoire du christianisme l' dictionnaire de»، مادة gnocisme، ص 453

7 آدلر، ألفرد.(1996). **سيكولوجيتك في الحياة كيف تحياها؟**. ترجمة عبد العالي الجسماني.(ط1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص 80

حينذاك، والإله تموز عند العراقيين، وكرشنا عند البوذيين، وسوشيانت عند الزرادشتيين، والمهدي عند الشّيعة والسّنّة، والطبقة البروليتارية عند الشّيوعيين، وهكذا دواليك...[8].

بالرّغم من أنّ فكرة انتظار المسيح قديمة قِدم التّاريخ، إلا أنّها عرفت نضجها وكمال نموّها مع الفكر الديني خاصّة الفكر اليهودي. هذا الفكر - الذي شبّ وترعرع في أحضان السّبي البابلي- وجد فيها تعبيرًا عن أمانيه وتطلّعاته، نحو عالم تلتئم فيه طموحات الشّعب اليهودي بلمِّ الشّتات، وتحقيق الوعود الإلهية لشعب الله المختار. بعد ذلك أخذت الفكرة في التدرّج والاكتمال مع المسيحية، التي آمنت بيسوع مسيح الربّ مخلّصًا، والتجأت بذلك إلى تحقيق النّبوات التوراتية في شأن المسيح. واكتمل المشروع بالإسلام، الذي نجد فيه فكرة الانتظار حاضرة في الوجدان الإسلامي. هذه العقيدة التي سترسّخ جذورها، من خلال روايات نسبت إلى رسول الله، تؤكّد مجيء المخلّص في آخر الزمان حاملةً المفهوم التّوراتي والإنجيلي، لهذه العقيدة مع قليل من التّحوير.

- مفهوم المسيحانية:

الاسم الفرنسي جاء من الاسم العبري **Massiah**، وتعني الممسوح بالزّيت، والمنقذ، والمفدي، الذي سيظهر في نهاية الزّمن. وقد استعمل هذا اللّفظ أولاً في حقّ الكاهن والملوك، والأشخاص ذوي المهمّات الإلهية، حيث كان اليهود يمسحون هؤلاء بالزّيت المقدّس - على غرار الثقافات السابقة - قبل تنصيبهم من أجل المكانة التي تبوؤوها، وكذلك لأجل المباركة.[9]

ويمكن أنْ نقول بأنّ لفظ المسيح، - كجميع ألفاظ اللغة -، اكتسب بتوالي العصور والثقافات معنىً جديدًا تجسّد بشكل واضح في شخص مرسل من الله، له قدرات خاصّة يتمتّع بها دون غيره من الناس. إنسان أرضي بطبيعة إلهية، استطاعت طبيعته أنْ تجمع بين الإلهي والبشري في شخص «ابن الإنسان». هذا الملك من سلالة داود سيعود ليعيد مجد مملكة إسرائيل، ويقضي على أعدائهم، ويعيد بناء الهيكل، ويحكم بالشريعة، وغيرها من المفاهيم التي لبسها هذا اللفظ من جراء أحداث متوالية مر بها الشّعب الإسرائيلي.

من خلال هذه الإطلالة السّريعة على بعض معاني لفظ المسيح، وتطوّره عبر العصور، نصل إلى أنّ هذه السلسلة المتوالية في توظيف مصطلح المسيح تستعيد بشكل كبير تاريخ التجسّدات المتتابعة للفكرة المسيحانية على مرّ الحقب التاريخية، منذ المفهوم الديني اليهودي والمسيحي، وصولاً إلى المفاهيم المقارنة

8 جمشيد، يوسفي.(2012). الزرادشتية الديانة والطقوس والتحولات اللاحقة. (ط1). مكتبة زين الحقوقية والأدبية. ص 325

9 أنظر المزيد عن هذا اللفظ بالمعجمين التاليين:

DICTIONNAIRE DE LA BIBLE ET DE RELIGIONS; MATIERE MESSIE, P: 291

DICTIONNAIRE DU JUDAISME, MATIERE MESSIE

الأنثروبولوجية- التاريخية، والاجتماعية السياسية المعاصرة مرورًا بالمسيحانية العلمانية، الثورية، أو الوطنية التي ولدت مع عصر الحداثة.

إذن فمصطلح المسيحانية يشير إلى الاعتقاد الديني بعودة شخص يفدي الناس مرسل لتأسيس عصر جديد للسّلام، والسّعادة والعدالة، التي تطبع نهاية النّظام الحالي للعالم. هذا المعتقد الذي أصبح يقدّم بعناوين مختلفة بدْءًا بالإيمان اليهودي والمسيحي وصولاً إلى الإيمان الإسلامي مع المهدوية مثلاً.[10]

- المسيح في الديانة اليهودية:

المسيح في العهد القديم لفظ مشترك كما رأينا سابقًا، كان يشير في البداية إلى الملك الممسوح من طرف الله. وبعد ذلك أخذ اللفظ حمولات ثقافية متعدّدة جعلته يكتسب معنى المخلّص المقدّس، والمنقذ المرسل من الله ليحمل رسالة السّلام إلى العالم.

- **المسيح الملك:**

إنّ أول مسح تطالعنا به التّوراة هو ما قام به يعقوب في سفر الخروج: «**فنصب يعقوب عمودًا في المكان الذي فيه تكلم معه عمودًا من حجر. وسكب عليه سكيبًا وصب عليه زيتًا. ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل**». وفي سفر الخروج (الإصحاح 03- 32- 72): «**وأنت تأخذ لك أفخر الأطياب. مرًّا قاطرًا خمس مئة شاقل وقرفة عطرة نصف ذلك مئتين وخمسين وقصب الذريرة مئتين وخمسين وسليخة خمس مئة بشاقل القدس. ومن زيت الزيتون هينًا. وتصنعه دهنًا مقدسًا للمسحة. عطر عطارة صنعة العطّار. دهنًا مقدسًا للمسحة يكون. وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل آنيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور**». وبفضل هذه السّلطة الممنوحة إلى الشّخص الممسوح، كان الملك ينعم بالاحترام والتّبجيل لوظيفته النيابية عن الله في الأرض.

ولعلّ أوّل تنصيب ملكيّ في التّوراة كان لشاول، الذي أصبح مسيحاً للربّ على شعب إسرائيل كما جاء في سفر صموئيل 10- 5 - 8: «**بعد ذلك تأتي إلى جبعة الله حيث أنصاب الفلسطينيين ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنّك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبؤون. فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر. وإذا أتت إليك هذه الآيات فافعل ما وجدته يدك لأنّ الله معك. وتنزل قدامي إلى الجلجال وهو ذا أنا أنزل إليك لأصعد محرقات وأذبح ذبائح سلامة. سبعة أيام تلبث حتى آتي إليك وأعلمك ماذا تفعل ودُعي بـ «مسيح الرب»**».

---

10 راجع مادة messianisme، في dictionnaire internationale des termes letteraires، على الموقع التالي: www.ditl.info

ثم تتالى بعد ذلك هذا الطّقس، وذلك بتنصيب الملك داود أيضًا، إثر مغادرة روح الربّ لشاول من جرّاء مخالفته للأمر الإلهي في قتل شعب العماليق، كما جاء في سفر صموئيل: «**أتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكًا على بيت يهوذا وأخبروا داود قائلين إنّ رجال يابيش جلعاد هم الذين دفنوا شاول**». صموئيل 2-5، وكذا وريثه سليمان: «**فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان**». ليستمر هذا الطقس في سلالة سليمان التي ارتقت إلى سدة الحكم في إطار أزمة سياسية: «**فأعطى الكاهن لرؤساء المئات الحراب والأتراس التي للملك داود التي في بيت الرب. ووقف السعاة كل واحد سلاحه بيده من جانب البيت الأيمن إلى جانب البيت الأيسر حول المذبح والبيت حول الملك مستديرين. وأخرج ابن الملك ووضع عليه التاج وأعطاه الشهادة فملكوه ومسحوه وصفقوا وقالوا ليحيى الملك**». **ملوك 2- 10- 12**

بعد وفاة سليمان أخذ مفهوم المسيحانية الملكية يتغير شيئًا فشيئًا، حيث تحول طقس المسح من مسحته الربانية، إلى طقس عادي يقوم به كبيرُ الكهنة من أجل تنصيب الملك الجديد الذي انتقل إليه المنصبُ بالوراثة أو بالاغتصاب، هذا التنصيب الذي لا يشير إلى مراسيمه الكتاب المقدس، إلا إذا استثنينا إشارته إلى الملوك الذين ملكوا أورشليم أو السامرة، وكم امتدت فترة حكمهم، كما في سفر الملوك 22-51: «**أخزيا ابن اخآب ملك على إسرائيل في السامرة في السنة السابعة عشرة ليهوشافاط ملك يهوذا ملك على إسرائيل سنتين**».

وبعد زوال مملكة السامرة وتحولها إلى ولاية آشورية سنة721ق م، وكذلك انهيار مملكة يهوذا سنة 578 ق م، وتحولها إلى ولاية بابلية، بدأت المسيانية تأخذ شكلاً آخر تمثل في التحول الجذري في النظرة إلى «مسيح الرب» بصفته ملكًا يحكم شعب الله المختار في الحياة الدنيا، إلى مفهوم أصبحت فيه شخصية المسيح شخصية مستقبلية تحمل آمال الشعب المختار وتعيد أمجاده الضائعة، وتدين كل الأغيار، وترجع الأرض الموعودة لجمع الشتات والتيه. ومن هنا نشأ المفهوم الأخروي «**eschatologique**» للمسيحانية، والذي سنتحدث عنه لاحقًا.[11]

- **المسيح النبي:**[12]

والنبي في المفهوم العبري تعني الشخص الذي يتحدث ويتكلم باسم الإله وينوب عنه بواسطة الوحي. ففي سفر الخروج يقول الله لموسى: «**انظر أنا جعلتك إلهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك**» (خروج 7: 1)، أي المتكلم عنك. وبالرغم من أنّ الله قد اختار لكلامه مجموعة من شخصيات العهد القديم (أبيمالك (تكوين

11 انظر ما كتبه فراس السواح على شبكة الإنترنيت بعنوان: "المسيح في التوراة والإنجيل والقرآن": - *www.maaber.org/issue.../spiritual_traditions1.htm*

12 DICTIONNAIRE DU JUDAISME, MATIERE: PROPHETE: راجع حول مفهوم النبي

02: 3- 7)، فرعون (تكوين 14: 1- 8 و52)، نبوخذ نصر (دانيال 2: 1- 54))، إلا أنّهم لا يدخلون في مفهوم النبوة، لعدم تحقق شروطها فيهم ولعل أهمها تبليغ الناس برسالة الله، والاطلاع على أمور المستقبل.

ودارس العهد القديم يجد فيه نبوءات متعددة عن المسيح النبي أو المسيا، هذه النبوءات التوراتية التي وجد فيها مجموعة من اليهود والنصارى، مطابقة تامة مع المسيح، الذي أكد بنفسه وفي العديد من المواضع بأنّه نبي مرسل من طرف الله: «**وأما يسوع فقال لهم ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته**» متى 13: 57، وبأنّ ما أخبر به هو من الرب الأب: «**إنّ لي أشياء كثيرة أتكلم وأحكم بها من نحوكم. لكن الذي أرسلني هو حق. وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم. ولم يفهموا أنّه كان يقول لهم عن الأب**» يوحنا 8: 26، وكانت الجموع ترى فيه نبيًا: «**فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل. ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام**» (متى 21: 11).[13]

- **المسيح الكاهن:**

ارتبط طقس التكهن أو الكهنوتية في العهد القديم بالتقليد اللاوي اللاويين 8-11: «**وللاوي قال تميمك وأوريمك لرجلك الصدّيق الذي جربته في مسّة وخاصمته عند ماء مريبة**»، هذا الطقس الذي يعكس ويفسر الوحي الإلهي وتقديس القربان. والعهد القديم تنبأ أيضًا بأنّ المسيح سيكون كاهناً: «**أقسم الرب ولن يندم. أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق الرب عن يمينك يحطم في يوم رجزه ملوكاً**». (مزمور 110: 4). ويتضمن عمل الكاهن تقديم الذبائح: «**لأنّ كل رئيس كهنة مأخوذ من الناس يقام لأجل الناس في ما لله لكي يقدم قرابين وذبائح عن الخطايا، قادرًا أن يترفق بالجهال والضالين إذ هو أيضًا محاط بالضعف ولهذا الضعف يلتزم أنّه كما يقدم عن الخطايا لأجل الشعب هكذا أيضًا لأجل نفسه**». (عبرانيين 5: 1-3)، إضافة إلى عمل الفداء الذي سيطهر من خلاله الجنس البشري من الخطيئة الأصلية، ليس بتقديم قرابين من تيوس وعجول، ولكن بتقديم نفسه فداءً على الصليب. «**وأما المسيح وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة فبالمسكن الأعظم والأكمل غير المصنوع بيد أنّ الذي ليس من هذه الخليقة وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبديًا. لأنّه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنجسين يقدس إلى طهارة الجسد فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي**» (عبرانيين 13-9).[14]

13 انظر حول وظائف المسيح كتاب: Jesus de nazarethe، Bruno fourte، ص 65

14 المقالة السابقة، وراجع كتاب: "JESUS DE NAZARETHE» ص 72

- **<u>مفهوم اليهود الإسكاتولوجي:</u>**

تعني كلمة Eschathologie: مذهب النهايات الأخروية للإنسان، وهو علم يدرس مصير الإنسان بعد الموت، ومحاكمته، وهلاكه، وأحداث نهاية العالم. وبالنسبة إلى المسيحيين نهاية العالم ليست فناءً بل هي تجديد، إنّه مجيء عالم متجانس مشترك لعودة المسيح، وقيامة الأموات.[15]

وكان تأثير هذا المذهب على العقل اليهودي قويًا، حيث تمت المزاوجة بين فكرة مجيء المسيح المنتظر، وفكرة المخلص الزرادشتية. هذه الفكرة التي كتب لها الانتشار إبان فترة سقوط الإمبراطورية البابلية سنة 539، وتمحورت حول المخلص الزرادشتي، الذي سيقوم بمعركة فاصلة بينه وبين الشيطان تنتهي بانتصار هذا الأخير، على هذه القوة الممثلة للشر في الأرض، حيث سيبتدئ العصر الذهبي الذي سينعم فيه الإنسان بحياة أبدية يملؤها الخير المطلق.

ولإبراز مكانة هذا المسيح في تصور اليهود الإسكاتولوجي، كان لزامًا أن يكون هذا المسيح ذا طابع خارق للعادة، فهو يولد من عذراء: «**ويعطيكم السيد نفسه آية: ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل**» إشعياء 7-41، وهو من نسل داود الذي سيحكم العالم إلى الأبد: «**لا أنقض عهدي، ولا أغيّر ما خرج من شفتي. مرة حلفت بقدسي أنّي لا أكذب لداود. نسله إلى الدهر يكون، وكرسيه كالشمس أمامي**». المزمور 98، وهو الابن الذي تبناه الله: «**إنّي أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي أنت ابني. أنا اليوم ولدتك اسألني فأعطيك الأمم ميراثًا لك وأقاصي الأرض ملكًا لك**». وهو المحمي من طرف الله: «**مبارك الرب لأنّه سمع صوت تضرعي. الرب عزّي وترسي عليه اتكل قلبي فانتصرت. ويبتهج قلبي وبأغنيتي أحمده. الرب عزّ لهم وحصن خلاص مسيحه هو**» مزمور 82-6-8. وهو الذي يتضرع الناس إلى الله من أجله: «**يا رب إله الجنود اسمع صلاتي وأصغ يا إله يعقوب. سلاه. يا مجننا أنظر يا الله والتفت إلى وجه مسيحك**» مزمور 48- 8-9. وهو الذي يُدعى ربًا وسيدًا، ويجلس عن يمين الرب: «**قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئًا لقدمي**»، وهو ابن الإنسان الذي سيمتثل في حضرة الربِّ، الذي يلقِّبه النص في سفر دانيال 7-9-41 بقديم الأيام: «**كنت أرى أنّه وضعت عروش وجلس القديم الأيام. لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة. نهر نار جرى وخرج من قدامه. ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قدامه. فجلس الدين وفتحت الأسفار كنت أنظر حينئذ من أجل صوت الكلمات العظيمة التي تكلم بها القرن. كنت أرى إلى أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودفع لوقيد النار. أما باقي الحيوانات فنزع عنهم سلطانهم ولكن أعطوا طول حياة إلى زمان ووقت كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه. فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض**».

---

15 انظر DICTIONNAIRECULTURELLE DU CHRISTIANISME, MATIERE ESCHATHOLOGIE P: 123، وللتوسع أكثر راجع المادة نفسها ب DICTIONNAIRE DES RELIGIONS P: 527

هذه بعض الصفات الأساسية التي حملها مسيح آخر الأزمنة في التصور اليهودي. وساعد على نموها وانتشارها التلاقح الحضاري اليهودي الفارسي من خلال فكرة المخلص الزرادشتية كما رأينا سابقًا.[16]

- المسيح في الفكر المسيحي:

- **يسوع وشخصية المسيح:**

كان لحياة يسوع تأثير عميق في أهل زمانه. ولعل ولادته المعجزة وطفولته الخارقة واحدة من أكبر الدواعي في هذا التأثير العميق. وبفعل هذه العوامل أخذ الناس يتساءلون ويتطلعون من خلاله إلى المسيح المنتظر: «**هلموا انظروا إنسانًا قال لي كل ما فعلت. ألعل هذا هو المسيح**» يوحنا 4-29. أو متسائلين عن أصل سلالته الداودية باعتبارها منبعًا لخروج المسيح: «**فبهت كل الجموع وقالوا ألعل هذا هو ابن داود**». متى 12-23

وظل مجموعة من الناس يرون في شخصية يسوع مسيحهم المنتظر، بالرغم من الممانعة الصريحة للسلطات اليهودية آنذاك: «**قال أبواه هذا لأنّهما كانا يخافان من اليهود. لأنّ اليهود كانوا قد تعاهدوا أنّه إن اعترف أحد بأنّه المسيح يخرج من المجمع**» يوحنا 9-22. فكان الناس يرون فيه ملكهم الموعود: «**وأما يسوع فإذ علم أنّهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكًا انصرف أيضًا إلى الجبل وحده**» يوحنا 6-15. كما كان يرفض كل لقب يوحي بأنّه مسيح، وفضل تسمية نفسه بابن الإنسان: «**الحقَّ الحقَّ أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان**» يوحنا 1-51. وكانت الشياطين تصرخ قائلة: «»**أنت المسيح ابن الله**»، **فكان ينتهرها ولا يدعها تتكلَّم**» (لوقا 4: 41). وعندما قال له بطرس: «**أنت المسيح ابن الله الحي**»، أوصى تلامذته ألا يخبروا أحدًا بأنّه المسيح، ثم راح يحدثهم عن ابن الإنسان وعن مهمته في هذا العالم وعن قدومه الثاني في آخر الزمان، قائلاً: «**فإنّ ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذٍ يجازي كلَّ واحد حسب عمله.**» (متى 16: 13-28).

وفيما يتعلق بلقب «ابن داود»، فقد أعلن يسوع صراحة أنّ المسيح ليس من سلالة داود عندما قال لجماعة من الصادوقيين: «**كيف يقولون إنّ المسيح هو ابن داود، وداود نفسه يقول في كتاب المزامير: «قال الرب لربِّي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك»؟ فإذا كان داود يدعوه ربًّا فكيف يكون ابنه؟**» (لوقا 20: 41-44).[17]

---

16 راجع مقالة فراس السواح: "المسيح في التوراة والإنجيل والقرآن"، وانظر حول هذا الموضوع: "الموسوعة اليهودية والصهيونية" لعبد الوهاب المسيري 5/294. وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك مسيحانية تنسب أيضًا إلى ابن ميمون الفيلسوف الكبير نقلتها عنه المعاجم الشارحة لكلمة Messianisme، مثل Dectionnaire de la bible. وانظر بعض معالم هذه المسيحانية بمقالة: Le messianisme comme étoupie réaliste: défi ou dilemme maimoniden, de Shlomo el Baz?, le colloque de cordoue ibn rochd, maimonide saint thomas ou la filliation entre foi et raison, édition climats, association frendienne internationale, 1992.

17 راجع أيضا مقالة فراس السواح: «المسيح في التوراة والإنجيل والقرآن»: www.maaber.org

- **يسوع ودور ابن الإنسان:**

كما رأينا سابقًا فقد كان يسوع يرفض وبشكل صريح لقب المسيح نظرًا لحساسيته السياسية لدى الجماعات اليهودية الموجودة آنذاك. وآثر أن يكون ابن الإنسان الذي يحمل دلالات عميقة تتجاوز الأفق السياسي الضيق، إلى أفق الرسالة الإلهية العالمية التي تحمل للإنسان الخير والرحمة ففي إنجيل لوقا 4: 18: «**وجاء إلى الناصرة حيث نشأ، ودخل المجمع يوم السبت على عادته، وقام ليقرأ. فَدُفِعَ إليه سِفْرُ إشعيا النبي. ولما فتح السِّفر وجد الموضع الذي كان مكتوبًا فيه: «روح الربِّ عليَّ لأنّه مسحني لأبشِّر المساكين، وأرسلني لأشفي منكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعُمْي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرُز بسَنَة الربِّ المقبولة. ثم طوى السفر وسلَّمه للخادم وجلس، وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه، فابتدأ يقول لهم: اليوم قد تمَّ هذا المكتوب في مسامعكم.**»

وهكذا يفتح يسوع بهذه الكلمات عهدًا جديدًا لمفهوم المسيح المنتظر. هذا العهد لن يقدم فيه يسوع نفسه ملكًا - ترى فيه بعض الجماعات اليهودية مسيحها الذي سيحقق لها مسيانية سياسية، ترى الإطاحة بالرومان غاية بذاتها- ولكنه كان على العكس من ذلك إذ رأى في نفسه الشخص الممنوح من الله صفة التبليغ رسالة المحبة والإخاء، وتحقيق الوعود الإلهية بشأن شعب الله المختار.

فبهذا الإعلان الذي ميز رسالة المسيح عن سابقاتها، استطاع هذا الأخير أن يميز ملكوته الخاص عن ملكوت إله إسرائيل الدموي والعنصري. فملكوت يسوع هو ملكوت روحاني يستجمع كل الأمم والشعوب دون استثناء، وتذوب فيه كل العنصريات والأحقاد لتنصهر في بوتقة المحبة والإخاء بين الإنسانية جمعاء: «**ثم كلمهم يسوع أيضًا قائلاً أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة. فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك شهادتك ليست حق أجاب يسوع وقال لهم وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأنّي أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب. وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب. أنتم حسب الجسد تدينون. أما أنا فلست أدين أحدًا وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق لأنّي لست وحدي بل أنا والأب الذي أرسلني. وأيضًا في ناموسكم مكتوب أنّ شهادة رجلين حق أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الأب الذي أرسلني. فقالوا له أين هو أبوك. أجاب يسوع لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضًا.**» يوحنا 12-19

إنّ إعلان يسوع عن ملكوت الله كان وراءه القصة التوراتية بشأن الخطيئة الأولى. فالإعلان عن هذا الملكوت كان هدفه أن تُمثِّل إسرائيل إنسانية الله الحقيقية السوية، كما أراد الله لا كما فعل آدم وزوجه. إنّه عصر الصلح مع البشرية عن طريق الخلاص من الخطيئة الأولى التي اقترفها آدم وأورثها ذريته من بعده. هذا كله مدعاة لمجيء ابن الإنسان في آخر الزمان لإدانة المذنبين وإثابة المحسنين: «**ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده. ويجتمع أمامه جميع**

الشعوب فيميّز بعضهم من بعض كما يميّز الراعي الخراف من الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار.» متى 25-31

وكما أنّ يسوع بإعلانه لهذا الملكوت الروحاني، قد افتتح نظامًا دينيًا جديدًا، فالشريعة التوراتية لم تعد سارية المفعول بحلول العهد الجديد، وإنّما ستأخذ مسارًا آخر مغايرًا ومختلفًا عن سابقاتها خاصة في العصر الموسوي. ولنستمع إلى قول يسوع المشهور: «**أريد رحمة لا ذبيحة**»، (متى 9: 13) لنرى بأنّ هذا الكلام يحمل دلالات خطيرة، تستهدف المساس بمؤسسة الكهنوت، التي ظلت قائمة على مر العصور في الذهنية التوراتية، فضلاً عن أنّه رسالة واضحة لتقويض طقس القربان التوراتي وإبطاله. فبظلم من اليهود، حملوا أوزارًا جزاء ما اقترفته أيديهم، أما العهد الجديد فهو عهد التخفيف والرحمة: «**تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني. لأنّي وديع ومتواضع القلب. فتجدوا راحة لنفوسكم. لأنّ نيري هين وحملي خفيف.**» متى 11-28

هذا الرَّجَحان للأخلاق على الطقوس يتجلّى، في أوضح صوره، في هزئه من طقوس الطهارة الشكلية التي تشكّل لباب الشريعة القديمة: «**ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجِّسه. لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان [...]. لأنّه من الداخل، من قلوب الناس، تخرج الأفكار الشريرة**» (مرقس 7: 15-23). وبهذا الفتح الجديد يكمل يسوع المهمة الإلهية التي جاء من أجلها، وهي إصلاح الشعب اليهودي، والخروج به من براثن العصبية والعنصرية المقيتة، وبذلك يهيمن على رسالة موسى من قبله تصحيحًا وتقويمًا. وعند ذلك لن يبقى للهيكل اليهودي مسوغ، ولا للطقوس الشكلية أي معنى في عالم يسوع الرحيب. فعندما ثار الفريسيون لأنّهم رأوا تلاميذ يسوع يأكلون بأيدٍ غير نظيفة قال لهم «**ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه. لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان**».

كان يسوع ملكاً، ولكن مملكته ليست أرضية، بل سماوية. ففي محاورته مع بيلاطس: «**ثم دخل بيلاطس أيضًا إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له أنت ملك اليهود. أجابه يسوع أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني. أجابه بيلاطس ألعلي أنا يهودي. أمّتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلي. ماذا فعلت أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلّم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا. فقال له بيلاطس أفانت إذا ملك. أجاب يسوع أنت تقول إنّي ملك. لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل من هو من الحق يسمع صوتي.**». يوحنا 18-33-37. وهو المسيح، ولكنه ليس المسيح اليهودي، بل «**<u>ابن الإنسان</u>**» الذي افتتح ملكوت الخلاص والغفران، وسيظهر مرة أخرى في نهاية الأزمان، لا لتخليص شعب إسرائيل، بل للفصل النهائي بين الخير والشر: «**وأما يسوع فكان ساكتًا. فأجاب رئيس الكهنة وقال له أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح**

ابن الله. قال له يسوع أنت قلت. وأيضًا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة وآتيًا على سحاب السماء.»[18]

- المسيح في الديانة الإسلامية:

سبق وأنْ أكّدنا في بحوث سابقة أنّ الطّرح الذي نرمي إليه هو التّأصيل للأُسُس والمرجعيات الثّقافية التي تنهل منها الرِّواية. فهي من جهة تعبيرٌ عن مرحلة نفسية واجتماعية وسياسية. ومن جهة أخرى مكوِّن إيديولوجي بالبُعد الذي تقوم فيه الإيديولوجية بدور الإخفاء والتّجميع والتبرير[19]. فالإسرائيليات التي هي جانب من جوانب الرِّواية تعكس التّثاقف الذي أحدثَتْه في بنائها وشائج من الثِّقة على مستوى التّأطير العقدي والفكري والذّهني لمن يؤمن بصدقها، أو يؤمِن بالمنهج الذي يؤدي إلى تصديقها. فنحن أمام تحدٍّ واقعيٍّ يجعلنا نقارب الموضوع بكثير من الدّقة، ونتعامل معه على أساس أنّه رواية أو ثقافة شفهية. فإنْ صمد جزِمنا بصدقيته، وإن انهار بناؤه لا نكلّف أنفسنا إلاّ أنْ نقول بأنّه جزءٌ من موروث ديني، وثقافي، اختلط فيه الصِّدق بالكذب، والحقّ بالباطل، والمقدَّس بالمدنّس، والإلهي بالبشري، إلى ما لا نهاية من هذه الثنائيات والمتناقضات.

ما زالت الثقافة الروائية تحمل الكثير من المفاهيم المتناقضة مع البناء الذي رسمه لها واضعوها ومؤسِّسوها. ويبقى السّؤال مطروحاً على هذه البنية الثّقافية من خلال ما تطرحه من نماذج إنسانية، ومشاريع يمكنُها أنْ تؤسِّس لما قد يحلُم به كل واحد منّا، مهْمَا كان توجُّهه أو منطلقه الفكري. من هنا سنحاول تعميق هذه الفكرة لتصل بنا إلى رؤية تنقذنا من الانزلاق إلى منعطف خطير تريد أنْ توصلنا إليه الرّواية في بعدها الإيديولوجي، المشبع بحمولات ثقافية عبَّرت كما قلنا سابقًا عن واقعها، أو عن الأفق الذهني الذي كانت تتحرّك من خلاله. فالخطير في هذه الثّقافة ليس منهجها فحسب، بل مآلاتها وامتداداتها العميقة في بنية المجتمع.

هل كان الإسلام مجرّد ناقلٍ لهذه التصوّرات والأماني دون أنْ تكون له وجهة نظر واضحة في الموضوع؟. وإذا كان الفكر المسيحاني بصورته اليهودية أو المسيحية مجرد حياكة لبعض أساطير التّوراة القديمة، فهل كتب الإسلام الخلود لمثل هذه الأساطير؟.

هذه الأسئلة وغيرها تجرّنا إلى البحث في طبيعة هذا الموضوع الإشكالي، من أجل رؤية أعمق، ورؤية أوضح. لكن قبل أنْ نخوض غماره لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الإسلام لم يكن بمعزل عن حركة التّأثير والتأثّر

---

18 المقالة السابقة

19 يرى بخلر بأنّ للإيديولوجيا خمس وظائف: 1- وظيفة التجمع ralliment. 2- التبرير Justification. 3- الإخفاء. 4- التعيين désignation. 5- تجويز الإدراك autoriser la perception.

انظر: دفاتر فلسفية. نصوص مختارة. **الإيديولوجيا**. إعداد وترجمة. محمد، سبيلا. وعبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال للنشر. ص 52

الحاصلة بين مختلف الأديان والمذاهب. حيث انتقلت الكثير من المفاهيم إلى الحقل الديني، أهمّها ما نحن بصدد دراسته. إذّ أنّ هذه العقيدة اليهودية المسيحية الضاربة في أعماق التاريخ، تحوّلت بفعل روايات، ونتيجة ظروف تاريخية إلى آثار نسبت إلى النبي محمد، وغذّتها آمال النّاس وتوقّعاتهم وأحلامهم. كما وجدت قواعد وأصولاً تحميها من المساءلة والنّقد. لتصبح هذه الأفكار، والأساطير الإنسانية بتجلّياتها اليهودية والمسيحية، عقيدة راسخة في وجدان المسلم، يغذّيها ويحميها، ويؤسّس لها من خلال التّنظير الفكري والسياسي.

ولمعرفة مدى هذا التأثير الخطير على بنية الفكر الديني الإسلامي، نستعرض رواية حديثية تحمل المضامين السابقة سواء اليهودية أو المسيحية. ونختم ذلك بموقف القرآن من كلّ هذه التصورات:

لا يجد الدارّس لكتب الحديث، كتابًا إلا وقد تناول مسألة نزول عيسى ومجيئه آخر الزمان، بأوصاف محدّدة، وتحديدات دقيقة لهذا الرجوع. حتى عدّت هذه الأحاديث من الأحاديث المتواترة التي تفيد العلم عند علماء الحديث، ولعلّ ما كتبه الشّوكاني في رسالة له بعنوان: «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح»، وما كتبه الألباني في كتاب: «قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام» يؤكد صدق ما ذهبنا إليه.

- عن أبي هريرة عن رسول الله قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل ابن مريم حكمًا مقسطًا وإمامًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد**»[20]. **رواه الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد واللفظ له (النبي المنتظر ص 208).**

هذه الرواية أنموذج للرّوايات المؤسّسة لعقيدة نزول المسيح، وعودته في آخر الزّمان وفق مواصفات محدّدة سلفاً، والتي كان التّأثير اليهودي المسيحي واضحًا فيها. إذ أنّ ما حرك هذا التثاقف هو الظّروف التاريخية كما سبقت الإشارة إلى ذلك. فكلّما عانت قومية أو طائفة أو مذهب من نير الظلم والاضطهاد، بحثت عن المخلِّص والمنقذ، طمعاً في مستقبل يحميها من واقعها، وينتشلها مما هي فيه من ويلات. وما يسترعي الانتباه هنا هو أنّ القرآن الكريم، وهو النصّ الأصلي لم يشر إلى هذه العقيدة، وحسم مع فكرة الانتظار، حين ربط الإنسان بمسؤولياته، ودعاه إلى التوكّل على نفسه وعلى الله. بل لم يشر إلى نزول عيسى أو غيره، إلا إذا قرئ في سياقات ثقافية مشبعة بأساطير العودة والأرض الموعودة، وغيرها من مفاهيم العقليات الدوغمائية المغلقة.

قبل خوض غمار هذا المبحث، لابدّ من التذكير بقاعدة قرّرها علماء الحديث عمومًا، واعتبروها من أولوياتهم، وإنْ كان تطبيقها على المستوى الفعلي ظلّ رهين التّنظير. هذه القاعدة تعتمد على أنّ صحة

---

20 عبد الوهاب، عبد السلام طويلة.(2002). **المسيح المنتظر ونهاية العالم**.(ط4). دار السلام للطباعة والنشر. ص 208

الأحاديث، تستلزم صحة السند والمتن معًا، ولا يكفي أنْ يكون السّند صحيحًا لنحكم بنسبة الحديث إلى رسول الله. ومن شروط صحة المتن عدم الغرابة أو الشذوذ أو النكارة.

وفي هذا الصدد يقول ابن الصلاح في المقدمة كما نقله عنه ابن كثير: **«أَمَّا اَلْحَدِيثُ اَلصَّحِيحُ فَهُوَ اَلْحَدِيثُ اَلْمُسْنَدُ اَلَّذِي يَتَّصِلُ إِسْنَادُهُ بِنَقْلِ اَلْعَدْلِ اَلضَّابِطِ عَنْ اَلْعَدْلِ اَلضَّابِطِ إِلَى مُنْتَهَاهُ, وَلَا يَكُونَ شَاذًّا وَلَا مُعَلَّلًا»** وقال: **«والحكم بالصحة أو الحسن على الإسناد لا يلزم منه بذلك على المتن، إذ قد يكون شاذًا أو معللاً»**[21]. وبالجملة فصحة متن الأحاديث تستلزم أن تكون حصيلة معانيها ومقاصدها موافقة موازين القرآن الكريم، والعقل والمنطق بعدم تعارضها مع مضمون آيات الله في القرآن الكريم، أو مقاصد الخلق والقيم الإنسانية، أو ما توصل إليه العلم وصار حقيقة علمية في الكون، والمجتمع والتاريخ.

وهنا يتضح لنا بأنّ عودة المسيح فيها من المخالفات ما لا يحصى، إذ أنّ القرآن الكريم كما سنرى أعلن موت النّبي عيسى، ولو كانت الرّوايات تحاول تأويل بعض الآيات لتشهد على هذه العقيدة. ومحمد هو خاتم النبيئين ولا نبي بعده حسب النصّ القرآني نفسه، وليس المسيح. إذ هذا الأخير بلّغ رسالته ومضى إلى ربّه، كما أنّ الروايات تؤكّد أنّه سيحكم بالعدل، ويقيم الإسلام حتى لا تبقى ملة من الملل. ثم يكسر الصليب ويقتل الخنزير. فهل هذه تشريعات إسلامية؟؟.

لقد أثبت بوهندي من خلال دراسته لموضوع عودة المسيح مجموعة من التناقضات التي تحملها الروايات المؤسّسة لعودة المسيح ونزوله، وتتبّعها مبينًا كيف ساهم التّفسير الإسلامي من خلال كتبه في ترسيخ هذه العقائد والأساطير، معتمدًا في ذلك على روايات إسرائيلية، تنحو بالنصّ القرآني إلى حيث وجهة المفسّر، فيصير النصّ محكومًا بدل أنْ يكون حاكِماً وموجّهًا.

وبالرجوع إلى بعض الآيات التي استشهدوا بها لا تجد فيها إشارات صريحة لهذه العقيدة، إلا إذا حاصرناها روائيًا، ومثال ذلك قوله تعالى: **«وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا»**.

قَالَ اِبْن جَرِير: اِخْتَلَفَ أَهْل التَّأْوِيل فِي مَعْنَى ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضهمْ مَعْنَى ذَلِكَ **«وَإِنَّ مِنْ أَهْل الْكِتَاب إِلَّا لَيُؤْمِنَن بِهِ قَبْل مَوْته»** يَعْنِي قَبْل مَوْت عِيسَى يُوَجِّه ذَلِكَ إِلَى أَنَّ جَمِيعهمْ يُصَدِّقُونَ بِهِ إِذَا نَزَلَ لِقَتْلِ الدَّجَّال فَتَصِير الْمِلَل كُلّهَا وَاحِدَة وَهِيَ مِلَّة الْإِسْلَام الْحَنِيفِيَّة دِين إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام ذِكْر مَنْ قَالَ ذَلِكَ.[22]

21 ابن كثير، إسماعيل الدمشقي، اختصار علوم الحديث، ص 12، على الرابط التالي:

http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=9&book=976

22 http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura4-aya159.html.

فابن كثير هنا وقبله ابن جرير يوجّه الآية نحو عقيدة لا أساس لها البتة، ولم يشر إليها النصّ من قريب أو من بعيد. فمن أهل الكتاب من آمن بدعوة عيسى ومنهم من لم يؤمن. فهل يا ترى هذا الإيمان اختياري أم اضطراري. فإذا كان الإيمان اختياريًا وهو الذي يجب أنْ يكون انسجامًا مع حرية التدين والعقيدة التي نادت بها الأديان، فلن يبقى معنى لهذا التوجيه. وإذا كان الإيمان اضطراريًا فما معنى شهادته على ناس آمنوا مجبرين. فالأصل في الإيمان هو الاختيار وليس الإكراه، وهنا تتجلى قيمة الشهادة.

وهناك آية أخرى تم الاستشهاد بها في هذا الموضوع: «**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (الزخرف 61)**. حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين، عن يحيى، عن ابن عباس، (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) قال: خروج عيسى ابن مريم))[23].

فابن جرير هنا يجعل العِلْم هنا خروج عيسى ابن مريم، مع أنّ الآية لم تذكر قضية النزول. ويبدو أنّه قد استعان هو وغيره بقراءة شاذة تحوّل عِلْم إلى عَلَم كما أكد بوهندي أيضًا[24].

إنّ المسيح هو عبد الله وليس ابنه، كما اعتقدت اليهود والنصارى في مسيحهم: «**لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون**» النساء 172. وليس ذا طبيعة خارقة تجعل منه الكائن الوحيد الذي يدين الناس ويجازيهم: «**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات وانظر أنى يؤفكون**» المائدة 75. ولن يملك لأحد الخلاص ولا الشفاعة لأنّ أمرهما بيد الله وحده: «**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا**». ولن يرجع آخر الزمان ليعيد مجد إسرائيل أو مجد غيرها لأنّ الله توفاه إليه، وحدد مراحل حياته في ثلاثة أطوار: ولادة فموت ثم بعث. وهي المراحل التي سيمر منها كل إنسان على وجه هذه الأرض: «**والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا**».

هذا مجمل القول في شأن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما أورده القرآن الكريم. فلم يبق معنى للقول إنّ القرآن الكريم قد سبب ضررًا كبيرًا للمسلمين حين تبنى المفاهيم المسيحانية في شأن عيسى ابن مريم. فهذا الكلام يمكن أن يجد مسوغًا له لو تعاملنا مع القرآن بصيغة تجزيئية لا تنظر إلى البنية القرآنية باعتبارها وحدة موضوعية لا يجب التعامل معها مفصولة عن سياقها العام. ولو اقتصر الأمر على الباحثين الغربيين وحدهم لكان هينًا على النفس تقبله. لكن وللأسف الشديد تجاوزه إلى علماء مسلمين سايروا الطرح التوراتي والإنجيلي في شأن المسيح المنتظر وألفوا كتبًا في الانتصار إلى ذلك، وهذا أدهى وأمر.

---

23 http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=4437&idto=4437&bk_no=50&ID=4481

24 انظر ما كتبه بوهندي، مصطفى، التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2004، ص 204

عود على بدء:

لم تخرج عقيدة نزول المسيح على فكرة الانتظار التوراتية، أو الإنسانية بشكل عام، على اعتبار أنّ فكرة الانتظار هي هاجس الشعوب المقهورة والمستضعفة. ولم يلجأ إليها الإنسان إلا تعبيرًا عن هذا الحلم بعالم مثالي، يقوده المخلص أو المنقذ أو المهدي أو المسيح. ذلك العالم المملوء بالخير والعدل والحق، والذي ستتغير فيه معالم هذا الكون، حيث ينمحي من هذا الوجود أيّ دين غير الإسلام، في تعبيرات توضّح هاجس العقل المتدين، الذي لا يطيق أصالة الاختلاف. ويسعى عبر مخياله الجمعي إلى الظفر بعالم تنتهي فيه كلّ الخصوصيات، ولا يبقى هناك أثر إلاّ لنمطية المذهب أو العقيدة أو الدّين.

هذه هي عقيدة الانتظار، سلاح العاجز، ورغبة الاتّكالي، وحقد الدّوغمائي الذي لا يرى إلا نفسه. وهي تعبيرات تختلف في الأسماء، وتتفق في المضامين. فلكل أمة مهديها، ومنقذها، ومخلصها مما علقت فيه من الخيبات.

المراجـع:

- ابن كثير، إسماعيل الدمشقي، اختصار علوم الحديث، على الرابط التالي: http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=9&book=976
- آدلر، ألفرد.(1996). **سيكولوجيتك في الحياة كيف تحياها؟**. ترجمة عبد العالي الجسماني.(ط1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الألباني، ناصر الدين.(1421). **المسيح الدجال ونزول الدجال عليه السلام وقتله إياه**.(ط1). المكتبة الإسلامية. عمان.
- بوهندي، مصطفى، **التأثير المسيحي في تفسير القرآن**، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2004
- جمشيد، يوسفي.(2012). **الزرادشتية الديانة والطقوس والتحولات اللاحقة**.(ط1) مكتبة زين الحقوقية والأدبية.
- جنيفر، ليمان.(العدد 2085). **تفكيك دوركايم: نقد ما بعد بنيوي**. ترجمة محمود أحمد عبد الله. مراجعة محمود الكردي. تقديم محمد حافظ دياب.(ط1/ 2013). المركز القومي للترجمة.
- حرب، علي.(1993). **النص والحقيقة II . نقد الحقيقة** (ط1). بيروت. المركز الثقافي العربي.
- حرب، علي.(2005). **نقد النص** (ط4). المركز الثقافي العربي. بيروت.
- دفاتر فلسفية. نصوص مختارة. **الإيديولوجيا**. إعداد وترجمة. محمد، سبيلا. وعبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال للنشر.
- عبد الوهاب، عبد السلام طويلة.(2002). **المسيح المنتظر ونهاية العالم**.(ط4). دار السلام للطباعة والنشر.
- الغنوصية: الفكر والوحي»، ترجمة أسماء جلال الدين، إعداد دارين أحمد على الموقع: http://www.maaber.org/issue_february05/spiritual_traditions1a.htm.
- فراس السواح، المسيح في التوراة والإنجيل والقرآن، *www.maaber.org/issue.../spiritual_traditions1.htm*
- الكوثري، محمد زاهد. (1987). في مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة. ملف pdf.
- نداء، أبو أحمد. علامات الساعة الكبرى نزول عيسى عليه السلام. ملف pdf.
- هوكس، ديفيد.(2000). الإيديولوجية. ترجمة إبراهيم فتحي. المجلس الأعلى للثقافة.

- Dictionnaire culturelle du christianisme, Nicole le maitre, Jean Thérèse, Quinson, Véronique sot. Paris: f .Nathan, 1994, de guibert,1998.
- Dictionnaire de la bible et de religions, des livres Brepols, Thurnhout, édition Brepols, 1985
- Dictionnaire de l'histoire du christianisme, préface de Jean Delumeau, encyclopédia universalis, Al Jesus de nazarethe: histoire de Dieu, Dieu de l'histoire/bruno forte ; trad. De l'italien par Benoît Dominique Sébire.paris: cerf, 1984
- http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=4437&idto=4437&bk_no=50&ID=4481
- http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura4-aya159.html.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنــون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراســات والأبحــاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016